الاغتيـال

مسـرحية

عن رواية ليونيد أندرييف: قصة سبعة مشنوقين

وشـذرات من الأدب الكلاسيكي الروسي



البيئـــة : روسيا. بطرسبورغ. أوائل ربيع ١٩٠٨.

المناظـــر : كلّها شَرطيّة لتحقيق الرشاقة في تتابع المشاهد، وهي:

١. غابة.

٢. صالة بيت.

٣. قاعة في سجن قلعة.

٤. زَنزانات في سجن القلعة.

الأزياء : السجناء يبقون طوال المسرحيّة بثيابهم الخاصّة، ولا يلبسون ثياب سجن موحَّدة.

الشخصيات:

آ : الــراويـــة

ب: السياسيون:

فيـــرنَـــر	زعيمهم	٣٥ سنة
سيـــرجي	(سِرْغِيْيْ) ملازم مسرَّح	٢٧ سنة

فاســـيلي	طالب جامعي حقوقي	٢٥ سنة
تاتيانا	مربية أطفال	٢٣ سنة
ماريا	ممرّضة	٢٣ سنة

ج: القاتلان:

يانْسُـــن	أجير زراعي	٣٠ سنة
الغجري	قاطع طريق	٣٥ سنة

د: رجال الدولة:

القــاضي

الــرقيب

العــريف

الـــحارس

عسكري١

عسكري٢

هـــ: أهالي المحكومين:

نيكولاي	أبو سيرجي. عقيد متقاعد
داريـــا	أم سيرجي
مارفـــا	أم فاسيلي

المشهد الأول

الإعدام

(فسحة في غابة)

(في عمق المنظر ثلاث أرومات، أي قواعد أشجار مقطوعة، تضاء عند استخدامها)

(المسرح مظلم)

(دقّات طبل بطيئة)

(يدخل الحارس مسلّحاً ببارودة يحمل فانوساً مشتعلاً، وخلفه السياسيون: تاتيانا وماريا أوّلاً، ثم سيرجي وفيرنر وبينهما فاسيلي. يليهم القاتلان: الغجري ويانسن. خلفهما العريف والرقيب، وكلّ منهما مسلّح بمسدّس. العسكريّان ١ و٢ يسيران على يمين ويسار

منتصف الرتل وكلّ منهما مسلّح ببارودة ويحمل فانوساً مشتعلاً. الجميع يمشون بصعوبة)

(يخفت صوت الطبل مع دخول الراوية)

الراوية : ثم ساروا بِهم آخِرَ الليلِ في الغابة الموحِشة. ساقوهم بعيداً عن أعيُنِ الناس، كي يُشنَقوا ويُدفَنوا ولا يدري بِهم أحد. السماءُ رماديّةٌ ثقيلةٌ قاتمة، والأرضُ غبِشةٌ مُبهَمة، والأقدامُ تغوصُ عميقاً في الطينِ اللزِجِ والثلجِ الذائب، وتجاهِدُ كي تتقدّم.. أمّا وجوهُ المحكومينَ الفتيّةُ العارية، فتشُقُّ هواءً جليديّاً قاسيّاً عسيراً على التنفّس، جارحاً نفّاذاً كرؤوسِ الحِراب.. (تخرج)

(إضاءة تدريجية شاحبة: ليلاً قُبيل الفجر)

(العريف والرقيب يتحاوران بهمس مسموع)

العريف : (للرقيب) لو أنّ الدربَ معبَّدٌ على الأقلّ.

الرقيب : رؤساؤنا لا يهتمّونَ بعذابنا، ويركبونَ عرباتٍ مُريحةً مغلَقة.

العريف : (مشيراً إلى السياسيين) وهؤلاءِ الخمسة، (بتهويل) تآمروا لاغتيالِ وزيرِ الداخليّةِ نفسِه.. فلماذا يعذّبُنا القاضي بجرجرتهم إلى هنا؟!

الرقيب : (مشيراً إلى الجهة التي دخلوا منها) وجَبَ أن يُشنقوا هناكَ في ساحةِ القلعة؛ أقرَبُ وأسرَع.

العريف : (مشيراً إلى الغجري ويانسن) والقاتلَين أيضاً.. وانتهَينا.

يانسُن : (يلتفت متوقّفاً ويصرخ في وجه الرقيب والعريف) ما أُريد.

(يتوقّف الحارس في أول الرتل ناظراً إلى الخلف، فيتوقف الجميع وينظرون)

الرقيب : (مقترباً من يانسن و مهدّداً بقبضته) أنتَ تخرسُ يا أبلهُ يا بليد، يا قاتلَ سيّدِه.

(يانسن ينكفئ عن الرقيب مخذولاً، وفي الوقت نفسه يتكلّم الغجري)

الغجري : (للرقيب) إلى متى نَمشي يا رقيب؟!

الرقيب : (ساخراً) نعم؟

الغجري : تعِبْنا.

الرقيب : (مقترباً من الغجري) قليلاً وتستريحُ إلى الأبد.. يا قاطعَ الطريقِ يا بلطجي.

(الغجري يبصق على الأرض أمام الرقيب، فيردّ الرقيب بالمِثل ويتجه إلى الحارس)

الرقيب : (للحارس) هيّا تحرّك؛ القاضي والضبّاط ينتظرون.

الحارس : (متوقّفاً وملتفتاً إلى الرقيب) ينتظرونَ في عرباتٍ مغلَقة، ولا يمشونَ مثلَنا في البردِ والطين.

الرقيب : إيّاكَ أن تنتقد رؤساءَك.. أقطعُ لسانَك.

(الحارس لا يردّ، ويسير دون إسراع، فيسير الجميع)

(موسيقا. وتغيير في الإضاءة يعني مرور زمن)

الرقيب : (للحارس) يا عسكري، توقّف عندَك.

(الحارس يتوقّف فيتوقف الجميع ويضعون الفوانيس أرضاً)

الرقيب : (للعسكريَّين ١و٢) أنتما تذهبانِ معي. (ثم للعريف) وأنت يا عريفُ انتبِه.. سبعةٌ باستلامك.

الغجري : (للرقيب) هكذا لا ينفع. قلْ لهُ استلِم قاتلَين، (مشيراً إلى مَن يعنيهم) وخمسة أبطال، كي لا يخلطَ بيننا عندَما.. (يضحك ضحكة ذئبيّة)

الرقيب : (ساخراً) نعمْ، عندما.. (ثم يحمل فانوساً ويمضي مع العسكريَّين ويختفي في عمق يمين المنظر)

(المحكومون يتوزّعون في أرجاء المكان: يقترب من يمين المقدّمة سيرجي وبجانبه تاتيانا، ومن

يسار المقدّمة ماريا وخلفها فيرنر، ويجلس يانسن على أرومة ولا ينهض إلاّ حين يُحمل لإعدامه. على أرومة مجاورة يجلس فاسيلي ضامّاً عضديه بكفّيه من البرد.. ومنذ الآن نعني بالمحكومين جميعهم ما عدا يانسن وفاسيلي) (الغجري يسير إلى فيرنر ويهامسه)

الغجري : سيّد.. يا سيّد.. ماذا لو خلّصْنا على الحارسَين؟ (فيرنر ينظر إليه صامتاً) نحاول.

فيرنر : لا فائدة.. تحمّلْ حتى النهاية.

الغجري : لماذا أتحمّل؟ ها؟ العراكُ ألطف. أضربِه ويضربني ولا أعرفُ النتيجة.

فيرنر : كلا، لا فائدة.

(يكون فاسيلي قد نهض وسار إلى الأمام ضامّاً عضديه بكفّيه مرتعداً)

فاسيلي : برررد. برررد.

(يسرع المحكومون إلى فاسيلي وينشغلون به بينما يعبُر الرقيب خلف المنظر حاملاً فانوسه، ومعه العسكريّان يحملان لوازم مشنقة: كرسيّ المشنوق

ومنصّته وحبلاً ذا أنشوطة. الثلاثة يسيرون بسرعة وانهماك، ويختفون دون أن يلاحظهم أحد)

تاتيانا : (تخلع منديل رأسها) فاسيلي، خذ منديلي. (يأخذه بشكل آلي ويبقى جامداً) طوِّق الرقبة.

فاسيلي : (برعب غريزي) الرقبة؟

تاتيانا : (تشدّ المنديل حول رقبته) يجبُ شدُّه هكذا. ستتشعرُ بالدفء فوراً (تضمّ كفّيه بكفّيها وتفركهما) سأدفّئُ كفّيك أيضاً.

فاسيلي : لا داعي.

تاتيانا : (تضمّ كفّيه إلى صدرها) فاسيلي.

فاسيلي : (ينتر يديه) لا داعي. (يعود إلى أرومته ويجلس)

فيرنر : (يقترب منه ويضع يده على كتفه) لا يُهِمُّ يا فاسيلي، لا يهمّ. قريباً ينتهي هذا كلُّه.

سيرجي : (يبعد فيرنر جانباً بلطف ويحلّ محلّه) فاسيلي، اصمُد مثلَنا. يجب أن نصمُد.

فاسيلي : يا مسرّة المفجوعين..

(خلال ما سبق تدخل الراوية)

الراوية : حاولَ فاسيلي أن يصلّي، فلم يجدْ في ذاكرتِه ما يعبّرُ عن تديُّنٍ حقيقيّ، إلاّ مزَقاً مِن ظِلِّ عباءةِ الدينِ في بيتِ أبيه، التاجرِ الذي يعبُدُ المال.. ولم تكنْ تلك المزقُ إلاّ ذكرياتٍ مِن طفولتِهِ الباكرة؛ ثلاثَ كلماتٍ تنطلقُ من أعماقِهِ دونَ إرادة: يا مسرّة المفجوعين.. (تخرج)

فاسيلي : (ناهضاً) يا مسرّةَ المفجوعين.. أقبِلي عليّ وساعديني؛ أسنِدي فاسيلي كاشيرين.

الغجري : (يهزّ كتفي فاسيلي) سيّد، يا سيّد. أنت بطلٌ فلماذا تخاف؟!

فاسيلي : اتركْني.

الغجري : الكلبُ وحدَه يُسبِل الذيلَ حين يخاف.. لكنْ أنت إنسان، ها؟.. ارفعْ رأسَك.

فاسيلي : لا بأس، لا بأس. (ثم يجلس، ولا ينهض إلاّ حين إعدامه)

(خلف المنظر يعبر الرقيب بفانوسه ومعه العسكريّان يحملان لوازم مشنقة ثانية، ويراهم الغجري)

الغجري : (لنفسه بصوت مرتفع) يا ربّي.. مشنقة.

(يلتفت المحكومون فيرون آخِر عبور لوازم المشنقة، فيسقط يانسن مغمى عليه وتهرع تاتيانا إليه)

تاتيانا : يانسُن..

(المحكومون يقتربون من يانسن)

العريف : (جالساً في مكانه) اهدَؤوا واتركوه.

ماريا : كيف نتركه؟

تاتيانا : أليسَ إنساناً مثلَك؟!

العريف : بل خادمٌ تافه.

سيرجي : كيف يُمكنُ هذا؟! انهضْ وقم بواجبك.

العريف : (من مكانه) الإغماءُ معتادٌ في هذه الأحوال. اضرِبوه كَفّين.

الغجري : أنا أُصحّيهِ ولا أزعجُه. (يركع بجانب يانسن ويدلّك صدغيه، ويربّت بلطف على خديه)

ها، بدأ يصحو. ابتعدوا ليتنفّس.

(المحكومون يتباعدون وأنظارهم متعلّقة بيانسن، فيجلس يحدّق إليهم)

يانسن : سيجارة.. ما في سيجارة؟ (لغته ركيكة مكسَّرة، وهو يسكّن أواخر الكلمات ويؤنّث المذكّر)

الغجري : من أين لنا؟!

سيرجي : معي سيجارةٌ واحدة. (يخرج من جيبه سيجارة، يسوّيها ويشعلها ويقدّمها ليانسن)

(يانسن يمجّ من السيجارة أنفاساً متلاحقة)

فيرنر : (ليانسن) مريحة. أليس كذلك؟

يانسن : مرتاح.. شكراً.

(يرتفع صوت الرقيب وهو يدخل حاملاً فانوساً، ويليه القاضي ثم العسكريّان فينهض العريف)

الرقيب : ها هم سيّدي؛ جاهزون.

(القاضي يخرج من جيبه ورقة)

القاضي : (للمحكومين) أنتم تعرفونَ القرارَ فهل أقرأُه؟

فيرنر : متّعتَنا به في محكمتك.

القاضي : (يعيد الورقة إلى جيبه ويخاطب الرقيب) ولكنْ أين الكاهن؟!

الرقيب : نسيته من عجَلتي وسأحضره. (ويتحرّك ليخرج فتصرخ ماريا)

ماريا : (حازمة) أنا أرفضُه.

(الرقيب يتوقف وينظر إلى القاضي، والمحكومون يتبادلون نظرات سريعة)

فيرنر : كلّنا نرفضُه.

القاضي : إذن تأتونَ اثنينِ اثنين، فتَوزَّعوا كما تشاؤون. (ثم للرقيب) ولا تتأخَّروا. (يأخذ الفانوس ويخرج)

(المحكومون يتفاهمون فيما بينَهم)

سيرجي : أنا وفاسيلي أوّلاً؛ لم يعد يَحتمل.

فيرنر : ثمّ أنا ويانسُن. هو أيضاً لا يَحتمل.

تاتيانا : بعدَكم أنا وماريا.

الغجري : أنا وحدي في النهاية. أنا أحتمل.

(سيرجي يقترب من فاسيلي)

فاسيلي : (يصرخ) ابعد عنّي.

سيرجي : (يمدّ يده إليه) فاسيلي، أمسِك يدي.

فاسيلي : (يصرخ) لا تلمِسني.

(رفاق فاسيلي يسرعون إليه)

فيرنر : فاسيلي أمسِكني أنا.

فاسيلي : (يدفع فيرنر عنه ويصرخ بحقد) أنت غرّرت بنا وقتلتنا أيّها الألمانِيّ.

ماريا : (بلهجة إقناع) عزيزي، كلّنا اتخذْنا القرار.

فيرنر : (لِماريا) هذا الكلامُ لا ينفعُ الآن.

فاسيلي : اخرسْ أنت.

تاتيانا : يا عزيزي الحبيب..

فاسيلي : (يغطّي وجهه بيديه) ألفُ لعنة. ألفُ لعنة. ألفُ لعنة.

سيرجي : (يمسح على شعر فاسيلي) فاسيلي، انظرْ إليّ. أنا أحبّك.

فاسيلي : (يدفعه عنه) دعني وحدي.

الرقيب : (مقترباً من فاسيلي) إلى متى أنتظرُك؟! إلى متى أنتظرُك؟!

فاسيلي : (مستنجداً) سيرجي.

سيرجي : (دافعاً الرقيب جانباً) ابتعد عنّا. (ثم لفاسيلي وهو يطوّقه بمحبّة وتشجيع) طوّقْني بقوّة..

(فاسيلي يطوّق سيرجي ويمضيان.. يواكبهما العسكريّان ويتبعهم الرقيب بفانوس)

(صمت ونظرات متبادلة)

الغجري : (لفيرنر والفتاتين) يا إخوتي، كيف أذهبُ وحدي؟ مع الجماعة ألطف.. سيّد، رافِقْني أنت.

فيرنر : لا أقدر. (ثم مشيراً إلى يانسن) أنا سأرافقُه.

الغجري : لا ترفضْ.. تكرّمْ عليّ.

فيرنر : انظرْ إلى حالته.. يحتاجُني أكثرَ منك.

الغجري : آه يا ربّي، أبقى بمفردي، كيف هذا؟! كيف هذا؟!

ماريا : (تتقدم منه) سأكون معك.

الغجري : (يتراجع ويحملق فيها) أنتِ يا آنسة؟! (تومئ برأسها موافقة) أنت الفتاةُ ولا تخافين؟!

ماريا : ولا أخاف.

الغجري : (يبتعد جانباً) كلاّ.. وحدي أحسن. الأمرُ بسيط.

ماريا : (تلاحقه) لا تخجل، لا تخجل.

الغجري : (يواجهها) لا تكوني خفيفة. أنا لا أستأهلُ تضحية.

ماريا : أنت الآنَ كأيِّ إنسان.

الغجري : ألا تتراجعين؟

ماريا : كلاّ.

الغجري : كما تريدين.. وإن تراجعتِ لن أزعل.

ماريا : لن أتراجع.

الغجري : (راكعاً ومتهلّلاً) يا ربّي، يا إلهي، يا إلهي..

(يأتي العسكريّان والرقيب حاملاً فانوساً)

الرقيب : هيّا.. اثنان أيضاً.

الغجري : (ينهض ويقترب من يانسن) وداعاً يا أخي، سنلتقي في العالم الآخَر.. إن رأيتَني فلا تُدِرْ وجهَك عنّي، واجلِبْ لِيَ الماءَ واسقني؛ سأشعرُ بالحرّ هناك.

فيرنر : (يقترب من يانسن فيطرق هذا برأسه) يانسن، انظر إليّ.

يانسن : ما أريد.

فيرنر : (يمسك كفّي يانسن بلطف) هيّا معي؛ تشجّعْني وأشجّعْك.

يانسن : (ساحباً يديه) ما أريد.

فيرنر :كفاك عذاباً كفاك.

يانسن : (باكياً) ما أريد.

فيرنر : (للعسكري ١) احمل معي.

(العريف يبادر ويحمل يانسن من إبطيه مع فيرنر، بينما يومئ الرقيب للعسكريَّين فيحمل أحدهما فانوساً ويواكبان فيرنر ويانسن)

يانسن : (ينوح بصوت خافت) ما أريد. ما أريد.

(فترة صمت ونظرات متبادَلة)

تاتيانا : عزيزتي ماريا، عشنا معاً سنواتٍ كأختين حميمتين. والآن يا ماريا.. الآن وحدي؟

ماريا : عزيزتي، نحن وهبْنا حياتنا للآخَرين. (ثم تشير إلى الغجري) وهو الآنَ يحتاجني أكثرَ من حاجتِك.

تاتيانا : أفهمُ يا عزيزتي، أفهم. لكنْ كيف وحدي؟!

الغجري : (لتاتيانا) آهِ يا مولاتي أنت روحٌ نقيّة، (ثم مشيراً إلى السماء) وتدخلين إلى هناكَ بمفردك. أمّا أنا فلن يقبلوني ولن أقدِر. سيقولونَ: أين تدسُّ أنفَك يا بلطجي. يا زاهقَ أرواحِ البشر. لكنْ، إن كانت معي فكأنّي طفلٌ بريء.. هل تفهمين؟

تاتيانا : (تبتسم رغماً عنها) أفهمُ وأتحمّل.. أنت معها.

الغجري : انظروا كيف تبتسم! الوجه كلّه يبتسم! كيف هذا منك يا آنسة؟!

(تاتيانا تندفع نحو الغجري وتضمه بقوة فيقبلها من وجهها وشعرها. الحارس ينظر إليهما فيترك بندقيته تسقط، ويمضي مترنحاً ويسقط منكبّاً على وجهه في أقصى طرف المنظر، فيسرع الرقيب إليه ويقلبه على ظهره باتجاه داخل المنظر)

الرقيب : أغمي عليك يا جبان؟ (يرفس الحارس) إلى جهنّم. (يعود إلى مكانه)

الغجري : أنت يا رقيب، (يشير إلى بارودة الحارس) خذ البارودة.

(الرقيب يحدج الغجري غاضباً)

الغجري : (ساخراً) أو آخذُها أنا.

(الرقيب يحمل بندقية الحارس ويعلّقها بكتفه، ويعود العريف حاملاً الفانوس ويتبعه العسكريّان)

العريف : (داخلاً) سيّدي؛ اثنين أيضاً.

تاتيانا : (تندفع لمعانقة ماريا) ماريا..

(وبينما تتعانق الفتاتان بصمت ينتبه العريف إلى الحارس المغمى عليه)

العريف : سيّدي، ماذا حدث؟

الرقيب : (رافساً الحارس) عسكريٌّ جبان. أرادَ أن يهرب.. وأُغمِيَ عليه.

العريف : إلى جهنّم.

الرقيب : (يأخذ الفانوس من العريف ويعطيه بارودة الحارس) راقبْه جيّداً فقد يصحو ويهرب.

العريف : حاضر.

الرقيب : (يتجه نحو المحكومين، ثم يتوقف ملتفتاً إلى العريف) ولا تعطِه البارودة.

(العريف يومئ إيجاباً)

(الغجري وماريا يسيران ليخرجا فيواكبهما العسكريّان، ويتبعهم الرقيب وتدخل الراوية)

الراوية : كان هذا في روسيا القيصريّة، عامَ ألفٍ وتسعِمئةٍ وثمانيةٍ، مِن بعدِ ثورةٍ عمّاليّةٍ دامت ثلاثَ سنوات، وسحقَها الجيشُ والشُرطةُ بالسيوفِ والبنادق.. والمدفعيّة.

(إظلام تدريجي وموسيقا، ويتغيّر المنظر)

المشهد الثاني

صالة شقة تاتيانا

المداهَمة

(أيقونة في زاوية. في الصدر مكتبة صغيرة تحوي بعض الكتب، وفيها بابان صغيران مغلقان)

(موسيقا ربيعيّة سعيدة ومتفائلة)

(ماريا راكعة تصلّي أمام الأيقونة)

الراوية : كانت تصلّي قبلَ كلِّ اغتيال، ليس خوفاً من الموت، بل استعجالاً لهُ إيماناً منها بأنه ليس فناءً بل خلود. فلو اجتمعَ في غرفتِها العلماءُ والفلاسفةُ والجلاّدون، وبسطوا أمامَها الكتبَ والْمَشارِطَ والبلطاتِ وأُنشوطاتِ المشانق، ليثبتوا لها أنّ الموتَ موتٌ وأنّ الخلودَ وهْمٌ وليس حقيقة، فإنّ هؤلاءِ جميعاً لن يثيروا إلاّ

استغرابَها ليس أكثر.. ولو طَوّقَ الجلاّدُ عنقَها بأُنشوطةِ المشنقة، لقالت إنها ستُشنَقُ حقّاً وتغدو جثّةً لكنّها لن تموت. وعندَ ذلك، سيتراجعُ العلماءُ والفلاسفةُ والجلاّدونَ مرتجفينَ ويقولون: لا تَمَسّوا هذا المكانَ فلهو مقدَّس.. هذا المكانُ مقدَّس.

(تخرج الراوية بينما تنهض ماريا، وتأتي تاتيانا من الداخل، سترتها غير مرتّبة، وفي يدها فطيرة)

تاتيانا : عزيزتي ماريا.. كُلي فطيرةً ثانية.

ماريا : (تأخذ الفطيرة) كلاّ. (تسير نحو المكتبة وهي تدور حول نفسها وتضع الفطيرة) يجب أن أبقى خفيفة، (مستمرّة في الدوران) خفيفةً كالفراشة. أحلّقُ أسرعَ فأسرع، وأعلى فأعلى وأقتلُ ذاك الوزير. (تتوقف) وأنتقمُ لكلِّ الضحايا.

تاتيانا : (تقترب من ماريا وتمسك يديها) عزيزتي، أخشى أن تتسرّعي وتفسدي العمليّة.

ماريا : (باسمة الوجه كلّه) لا تخافي عليّ.

تاتيانا : لكنّك ترتعشين. (تلمس جبين ماريا) ورأسُك يشتعل.

ماريا : جسمي كلّه يشتعل.. توقاً إلى اللحظة الرائعة.

تاتيانا : ماريا، ماريا.. لا تندفعي إلى الموت.

ماريا : (مستفِزةً بين مزح وجدّ) إن عاجلَني الموتُ فسوف أفرح، فهو الخلود.

تاتيانا : أنت مريضةٌ بِحُبِّ الموت.

ماريا : وأنت مريضةٌ بالِخوفِ على الجميع.

تاتيانا : أنا أمُّ الجميع، وسأبقى أمَّ الجميع.

سيرجي : (آتياً من الخارج) تاتيانا دائماً أمُّ الجميع.

تاتيانا : سيرجي.. أهلاً.

سيرجي : أهلاً بالحلوتين، في بيتِ الحلوتين.

تاتيانا : (تقرص خدّه بلطف) البيتُ بيتُ الجميع، (وتشير إلى الداخل) والفطائرُ ساخنةٌ وكثيرة.

سيرجي : أنا سبقتكما منذ ساعة.

ماريا : سيرجي.. لا تتدلّل.

سيرجي : أنا لا أغيّر عادتي مذ كنتُ في الجيش؛ رياضةٌ صباحيّةٌ منشِّطةٌ ثم إفطارٌ كامل، وبعدَهما عمل مُتقَن. (يرتّب هندام تاتيانا) فكلُّ شيءٍ في الحياةِ يجبُ أن يتمَّ كما ينبغي، على الوجهِ الأكمل.

فاسيلي : (آتياً من الخارج) على الوجهِ الأكمل. (ويفتح سترته فيظهر على خصره حزام علّقت به ثماني قنابل من صنع يدوي، وتعلوه أربعة أحزمة ناسفة) لو رأيتم كيف سرتُ بها خلال الناس. أحسست أنّي وإيّاها كائنٌ واحد. (يخلع حزام القنابل ويرقص به بشكل استعراضي، بينما يدخل فيرنر ويقف وراءه فلا يراه)

تاتيانا : (بزجر أموميّ) فاسيلي. (يتوقّف) نحنُ لا نسعى إلى الموت.

فيرنر : ولا نتباهى ولا نتظاهر.

فاسيلي : حاضر. حاضر.

فيرنر : (يواجه فاسيلي) دعني أرى. (يعدّ القنابل والأحزمة بنظره وسبّابته) ثمانٍ فقط وأربعةُ أحزِمة!!

ماريا : حزامٌ وقنبلتانِ لكلِّ منّا. وأنت لن تحملَ أيَّ قنبلةٍ أو حزامٍ ناسف.

فيرنر : ما معنى هذا؟!

فاسيلي : هذا ما اتفقْنا عليهِ ليلةَ البارحة.. بعد ذَهابِك.

فيرنر : (بلهجة قياديّة هادئة) تتّفقونَ على زعيمِكم بعدَ ذَهابِهِ؟!

سيرجي : أرجوك افهَمنا؛ القنابلُ والحزامُ دليلٌ خطيرٌ إذا اعتقلوك. أمّا مسدَّسُك وحدَهُ فمخالَفةٌ فرديّة.

تاتيانا : وأنت يجبُ أن تبقى وتقودَ المنظّمة، وتعيدَ بناءَها إذا اعتُقِلنا.

فيرنر : (منافقاً) أنتم رائعونَ حقّاً، لكنْ غيرُ معقول.

ماريا : نحنُ أربعةٌ وأنتَ واحد. والقرارُ للأغلبيّة.

فيرنر : كما تريدون. (ينظر إلى ساعته) هيّا استعدّوا.

(فاسيلي يفكّ ثلاثة أحزمة فيتحزّم بواحد منها كلّ من الفتاتين وسيرجي، ويأخذ كلّ من هؤلاء الثلاثة قنبلتين ويعلّقهما بحزام بنطاله ويأخذ مسدّساً من خزانة المكتبة ويهيّئه)

ماريا : وأنتَ يا فيرنر؟

فيرنر : (يكشف عن مسدّس تحت إبطه) جاهزٌ حتى في دروسي الخصوصيّة.. (ثم بابتسامة مستفِزّة) وفي الحفلاتِ الراقيةِ.. مع الجميلات. (ثم للجميع بلهجة جادّة) هيّا، لننطلق.

(موسيقا قاتمة صاخبة ويخرجون: أوّلهم ماريا وفاسيلي، يليهما سيرجي وتاتيانا، وبعد لحظات يخرج فيرنر).

(إظلام مفاجئ)

(يتغيّر المنظر)

المشهد الثالث

قاعة في سجن القلعة

المحاكمات

(الموسيقا السابقة مستمرّة)

(إضاءة نهار)

(أمام القاضي ثلاث إضبارات: سميكة مفتوحة هي إضبارة السياسيين، ورقيقة هي إضبارة يانسن، وسميكة هي إضبارة الغجري) (الراوية واقفة في مقدّمة المكان. السياسيون واقفون في مواجهة القاضي جانبيّاً وبقربهم العريف، إلاّ فاسيلي الذي يقف أمام القاضي. القاتلان جالسان في طرف بعيد عن القاضي والسياسيين، وقربَهما يقف الرقيب. الحارس واقف بباب القاعة).

(كلّ من السياسيين يتابع محاكمة رفاقه باهتمام، إلاّ فاسيلي الذي يتابع مضطرباً يفرك يديه وساقيه خلال محاكماتهم، وينشغل عن هذا الاضطراب حين يتابع محاكمة القاتلين)

الراوية : (مع الموسيقا) كان الربيعُ يشقُّ طريقَه بينَ العواصفِ الثلجيّة، والأيامِ الصقيعيّةِ المكفهرّة، مشرقاً دافئاً كوجهِ طفلٍ بريء، ومُهدياً أوقاتاً غضّةً لَهْفى ومتألّقة. أمّا في سجنِ قلعةِ العاصمة، فمحكمةٌ عسكريّةٌ جَهمةٌ متعجّلة، ونشاطٌ مُريبٌ مُخادع، خلفَ جدرانٍ سميكةٍ عاليةٍ باردة. (تخرج)

(تنتهي الموسيقا)

فاسيلي : (للقاضي) أنا ابنُ تاجرٍ متوسّطِ الحال، وطالبٌ في كلّيةِ الحقوقِ لم أتخرّج. وهذه أقوالي.

القاضي : وماذا عن قنبلتَيكَ ومسدّسِكَ وعصابتِك؟ (فاسيلي يُطرق صامتاً) ماذا عن وجودِك معهم قربَ بيتِ الوزير؟ (فاسيلي لا يجيب) إلى مكانِك.

(فاسيلي يرجع إلى حيث رفاقه، بينما يتناول القاضي من الإضبارة ورقة ينظر فيها ثم ينادي)

القاضي : تاتيانا كوفالتشوك. (تاتيانا تقترب منه) أنتِ مِن مقاطَعةِ أوكرانيا، فلماذا تعيشينَ هنا وليس في مقاطعتك؟ ولِماذا تعيشينَ وحدَكِ مع زميلتِك هذهِ وليس مع أهلِك؟

تاتيانا : لأنّ أبي وأمّي كانا يعملانِ هنا في الْمَناجم، وقد ماتا بالسلِّ كلاهما واحداً بعد آخَر.

القاضي : وأنت تشتغلينَ معلِّمةَ أطفالٍ في البيوتِ لكي تعيشي. (تاتيانا تهزّ رأسَها موافقة) فكيف سعَيتِ إلى مُهاجَمةِ عربةٍ قد يكونُ فيها أطفال؟! أعني عربةَ السيّد وزيرِ الداخليّة.

تاتيانا : لقد راقبْنا الوزيرَ وتحرّكاتِه؛ هو لا يصحبُ أطفاله إلى الوِزارة.

القاضي : ألا يُحتمَل أن يصطحبَ أسرتَهُ ليوصلَها إلى أيِّ مكان؟

تاتيانا : ليس من عاداته اصطحابُ أسرتِه في تلك الساعة.

القاضي : لو أنه خالفَ عاداتِهِ لَقمتم بتفجيرِه مع أسرتِه.

تاتيانا : لم نخطّط لاغتيال أحدٍ غيرِه.. وبالمسدّس.

القاضي : فلماذا القنابلُ والأحزمةُ الناسفة؟

تاتيانا : لتأمين انسحابِنا إذا طوّقونا.. أو انتحارِنا عند الضرورة.

القاضي : وفي الحالَينِ تقذفونَ القنابل، ويتناثرُ لحمُ الأبرياء. (تاتيانا تطرق صامتة) ألا تشعرينَ الآنَ ولو ببعضِ الندم؟ (ترفع رأسها صامتة) أنا أشعرُ أنك نادمة. وسوف أساعدُك بتخفيفِ حكمِكِ إن ساعدتِ العدالة. فأخبريني عن منظّمتكم: هل هي خليّتُكم وحدَها أم أكثرُ من خليّة؟

تاتيانا : (متحدّية وحازمة) لن أخبرك بأيِّ شيء.

القاضي : لا تكوني عدوّةَ نفسِك بل أجيبي: هل تنتشرُ المنظّمةُ في العاصمةِ وحدَها أم في باقي المدن؟

تاتيانا : لن أخبَرك بأيِّ شيءٍ والموتُ أشرَف.

القاضي : أنا أريدُ لك الحياة.

تاتيانا : لا أقبلُ حياةً رخيصةً ودنيئة.

القاضي : (بقرف) عودي إلى مكانِك.

(تاتيانا تعود إلى حيث رفاقها، بينما يضع القاضي الورقة في الإضبارة، ويأخذ منها ورقتين ينظر فيهما واضعاً إصبعه على مكانين فيهما كأنه يقارن، ثم ينادي)

القاضي : ماريا فيفسكي.

(ماريا تقترب من القاضي)

القاضي : (يشير بإحدى الورقتين) قلتِ أمام قاضي التحقيق: إنكِ بنتُ الكاهنِ الريفي فاسيلي فيفسكي، الذي تلَبّسَهُ جنونٌ شيطانِيٌّ وظنَّ أنه السيّدُ المسيح، وأحرقَ الكنيسةَ واحترقَ فيها. وقلتِ أيضاً: إن أمَّكِ أسرعَت إلى الكنيسةِ كي تنقذَهُ فاحترقت معَه.

ماريا : هذا صحيح.

القاضي : (مشيراً بالورقة الثانية) لكنّ التحرّياتِ زوّدَتنا بتقريرٍ مختلف؛ يقولُ إنك لقيطة، وإنك بنتٌ بالتبنّي لخادمةِ إقطاعيٍّ نبيلٍ توفّي منذ سنوات.

ماريا : صحيحٌ أيضاً.

القاضي : (زاجراً ومكذّباً) أأنتِ ابنةُ الكاهنِ أم لقيطة؟!

ماريا : قصّةُ حياتي لا تنفعُ المحكمة.

القاضي : أنا أقدِّرُ ما ينفعُ المحكمة.

ماريا : كما تريد.. كان عمري ستَّ سنواتٍ عندَما احترقَ أبي وأمّي. واعتبرَني أقاربي مسكونةً بالشيطانِ مثلَ أبي فوضعوني في ملجأٍ للّقطاء.. وبعدَ سنواتٍ قليلة، بدأ المشرِفونَ يحاولون اغتصابي كما يغتصبونَ

أمثالي، وكنتُ أخمِشُ وأعضُّ وأتمنّع. (يلتمع وجه القاضي بشهوة ذئبيّة) وذاتَ يومٍ جمعَت المشرِفاتُ أكبرَنا والنابتاتِ الصدور، وبعد حَمّامٍ وتمشيطٍ على غير عادة، عُرِضنا على ضيفٍ كهلٍ هو ذاك النبيل، فابتسمَ لرؤيتي وكادت عيناه تَدمَعان. ظننتُها شفقةً وركعتُ عند قدميه، فأخذني إلى قريته وسلّمَني إلى مدبِّرةِ بيتِه.. بعدَها عرَفتُ أنه معتادٌ على شراء الصغيراتِ لمتعتِه، وكلّما كبِرت إحداهنّ يستغني عنها ويحوّلُها إلى خادمة.. وحين أراد جسدي توسّلتُ إليهِ بالسيّدِ المسيحِ فنهرَني وشتمَ ربّي. قاومتُه فجلدَني بحزامه حتى خارت قِوايَ فاغتصبَني. وفي الليلِ حاولتُ الهروبَ فأرجعَني خدُّامُه، وأمرَهم فقيّدوني إلى شجرة الإجاصِ في ساحةِ القرية، وألهبوا ظهري بالسياطِ حتى أغميَ عليّ، فسفحوا عليّ ماءً لأصحو، ثم تركوني مقيّدَةً أرتجِف..

القاضي : (مقاطعاً) ماذا بعد ذلك؟

ماريا : أنقذني حوذيُّ البريدِ في ظلُمةِ الليل، وأخذني إلى طبيبٍ هنا يعالِجُ الفقراءَ دون مقابل، فداوى جراحي وسألني عن حالي فأخبرتُه، ورجَوتُهُ أن يقبلَني خادمةً فقال: بل

عاملةٌ صغيرة. وبدأ يعلّمُني القراءةَ والكتابة. ومع الزمنِ درّبَني على التمريضِ وثقّفَني ثقافةً شاملة.

القاضي : ما اسمُ هذا الطبيبِ وما عُنوانُه؟

ماريا : اسمُهُ لا ينفعُ المحكمة. و عُنوانُه قذيفةُ مِدفع.

القاضي : (زاجراً) أوضحي وبلا مواربة.

ماريا : كان مشتركاً في الثورة، وكان يسعفُ الناسَ في الطريقِ والجيشُ يطلقُ النار.. فأصابته قذيفة.

القاضي : وهكذا تلقينَ تبِعاتِ أفكارِكِ وأفعالِك كلِّها، على شخصٍ ميّت.

ماريا : أنا لا ألقي تبعاتي عليه بل أفتخرُ به. ولقد وهبتُهُ روحي وجسدي في حياتِه، وبعدَ مَقتلِهِ انتسبتُ إلى المنظّمة، لكي أنتقم.

القاضي : إمّمم.. فما دورُ هذا الذي يسمّي نفسَه فيرنَر إيفانوف: هل هو زعيمُ المنظّمة كلِّها أم زعيمُ خليّتِكم وحدَها؟ وهل هو ألمانيٌّ كما يوحي اِسْمُه، أم روسّيٌّ كما توحي كُنيتُه؟

ماريا : لا أعرفُهُ ولا يعرفُني، ولا تسألْني عن أيِّ شيءٍ يخصُّ المنظَّمة.

القاضي : (مشيراً إلى الإضبارة) التقاريرُ تقولُ إنكِ مؤمنةٌ ومتعبّدة، والإيمانُ يقتضي مساعدةَ العدالة.

ماريا : إيمانُكم ليس إيماناً وعدالتُكم ليست عدالة.

القاضي : ألا ترغبينَ في رحمتنا أو رحمةِ الله؟

ماريا : وهل تملِكُ أنتَ رحمةَ الله؟!

القاضي : انقلعي إلى مكانِك. (تعود إلى مكانها بينما يكتب في الإضبارة ويخرج منها ورقة وينادي)

فيرنر إيفانوف. (فيرنر يقترب من القاضي فيخاطبه متصنّعاً الاحترام):

السيّد فيرنر إيفانوف. أستاذُ الرياضيّاتِ وعلمِ اللغاتِ بدروسٍ خصوصيّة.. الروسيُّ المشكوكُ بهويّته وجنسيّته.. (يشير بالورقة، ويقرأ منها أحياناً) لكنّكَ بعدَ الآنَ لم تعدْ مجهولَ الهويّة. الاسمُ الحقيقيّ: فيرنر كْلاوْس. ألمانِيٌّ من دْرِيسْدِن. أبوه المهندسُ المِعماري: يوهان كْلاوْس، وأمُّهُ الشاعرةُ الروسيّةُ المهاجِرة: ناتاليا لِيسكوفا. وهو الشخصُ الوحيدُ الذي تخرّجَ من جامعةِ مدينتِه بشهادتينِ في وقتٍ واحد: عِلمِ الرياضياتِ وعِلمِ اللغات. وقد نشرَ في ألمانيا

ديوانَ شعرٍ صغيراً بعُنوان: تنهّداتُ البنفسج. ثم انتسبَ في برلينَ إلى حزبٍ ثوريٍّ اشتراكيّ، وتركه حين فشل في الوصولِ سريعاً إلى الزِعامة.. وقد شرّفتَ بلادَنا منذ سنتين، بجوازِ سفرٍ صحيحٍ وباسمِك الحقيقيّ: فيرنر كلاوس.. وهذه معطَياتُ الشرطةِ الألمانيّة، وبعدَها الشرطةُ الروسيّة، برقيّاً لأجلِ السرعة. (يضع الورقة في الإضبارة)

فيرنر : هذه المعطَياتُ عن شخصٍ ألمانيٍّ وليست عنّي.

القاضي : هذا الشخصُ هو الوحيدُ المطابِقُ لِمعطَياتِك، فهو أنت ذاتُك.

فيرنر : ليس لديّ ما أقولُه.

القاضي : لديكَ الكثيرُ وأنا أحذّرُك: التكتُّمُ قرينةُ جُرمٍ وليس دليلَ براءة.

فيرنر : كيف تجرِّمُ شخصاً كان يمشي وحدَه في الشارع، ومعه مسدّسٌ لأمنِه الشخصيّ؟!

القاضي : أنا أنصحُكَ بالاعترافِ وطلبِ الرحمة.. كي أنظرَ في إمكانِ تخفيفِ حُكمِك.

سيرجي : (مندفعاً نحو القاضي) كلّ مَن طلب رحمتكم أهان نفسه ثم أُعدم. ونحن لن نسترحم.

القاضي : تعال إلى هنا، ولا تتكلّمْ باسم غيرك.

(القاضي يخرج من الإضبارة ورقة بينما يرجع فيرنر إلى مكانه)

القاضي : (يشير بالورقة) هذه عريضةُ استرحامٍ إلى جلالة القيصر، رفعَها والدُك العقيدُ المتقاعد، (يستعين بالنظر إلى الورقة) نيكولاي غولوفين. فاسمعْ ما كَتبَ فيها.

سيرجي : أعرفُ ما يمكنُ أن يكتب، ولا داعي للقراءة.

القاضي : ألا تهتمُّ بأبيك؟

سيرجي : أنا أحترمُه وأشفقُ عليه؛ فقد أمضى حياتَه في الجيشِ طفلاً بريئاً بقلبٍ أبيض، ومثالاً للشرف والاستقامة. وخلال خدمتهِ كلِّها كان يقدّسُ الواجبَ والأوامر، وينفّذُها بكلِّ حماسةٍ وإيمان، لأنه كان محظوظاً ولم يَخُضْ معركةً واحدةً غيرَ شريفة.. أمّا أنا فرأيت الوَجهَ الآخَرَ للواجبِ والأوامرِ يومَ الأحدِ الدامي، أفظعِ أيّامِ الثورة: لقد قَتلَ جيشُنا ألفَ رجُلٍ وامرأةٍ وجرحَ ستّةَ آلاف.. وأُمِرتُ أنا بإطلاقِ مدافعِ سريّتي على المتظاهرينَ فلم أنفِّذ.. فسُجِنتُ مع اللصوصِ والمجرمينَ ثم سُرِّحتُ مع التحقيرِ والإهانات..

القاضي : (يقاطعه) موضوعنا هذه العريضة. فاقرأْها ووقّع عليها، فهي فرصتُك الأخيرة.

سيرجي : بل فرصتُكم الأخيرة، لتشهّروا بتخاذلي أوسعَ تشهير، وتدّعوا أني اعترفت بأني خائنٌ ومتآمِر. وبعدَها أُشنَقُ وأُرمى للشعبِ خِرقةً بالية، فلا يحترمُ قضيّتي أحدٌ ولا يغضبُ لموتي أحد. (القاضي يدقّ بيده على الطاولة) تريدون من أمثالي أن يطلبوا الرحمةَ كي يسقطوا، أمّا أنا فلن أسقط.

القاضي : ولن تكونَ بطلاً لأنّ الإرهابَ ليس بطولة.

سيرجي : نحن نعرف كيف تكون البطولة. وقد لجأنا إلى العنفِ كي تكفّوا أنتم عن العنف، (القاضي يقاطعه بالدقّ على الطاولة) عن تسليطِ جيوشِ المخبرينَ والشرطةِ السرّية، (القاضي يدقّ على الطاولة) عن السَجنِ والتعذيبِ الوحشيِّ والتصفيةِ الجسديّة، (القاضي يدقّ على الطاولة) والمحاكماتِ السريعةِ والمشانقِ الجاهزة. (القاضي يدقّ على الطاولة)

سيرجي : (بعد لحظة صمت) هذا ردّي على فرصتك الأخيرة. (ويعود إلى حيث رفاقه)

(القاضي يضع عريضة الاسترحام في الإضبارة ويغلقها، ثم يتناول إضبارة يانسن)

(خلال المحاكمتين التاليتين تظهر على رفاق فيرنر ردود أفعال يحاولون ضبطها، أمّا فيرنر فيبقى منعزلاً هادئاً هدوءاً العلماء، مستغرقاً في لعبة شطرنج يتخيّله)

القاضي : (يفتح إضبارة يانسن ويخاطب الرقيب) إيفان يانْسُن.

يانسن : حاضر سيدي.

الرقيب : (بعد أن يقود يانسن إلى المكان المطلوب) قف هنا ولا تتحرّك.

القاضي : إيفان يانسُن، من أيِّ مقاطعةٍ أنت؟

يانسن : أستونيا.

القاضي : متزوّج؟

يانسن : ما في متزوّج.

القاضي : منذ متى تشتغلُ في روسيا، عند الْمُزارع لازاريف؟

يانسن : إتنين سنة سيدي. آجير زيراعي، عامل فقير.

القاضي : أجبْ على أسئلتي بلا إضافات. لماذا كنت تحقد على سيّدك؟

يانسن : (للرقيب) أيش يعني: تحقِد؟

الرقيب : يعني: ما في حبّيت سِيدَك، يعني: إنتَ ليش ما في حبّيت سيدَك؟

يانسن : (للقاضي) سيدي، معلّم لازاريف دايماً قالِت: يانسن كسلان، يانسن سكران. وبعدين أُضربني، (ويصحح) يعني: أُضربك. (القاضي يخفي وجهه قليلا) يعني: معلّم أُضرب يانسن، يانسن إضرب حُصان. حُصان صارت مجنون وَحْدَك.

القاضي : (وقد بدأ يتمتّع باللعبة) آ، هه؛ وكيف حاولتَ أن تغتصب الطباخة؟

يانسن : ما في مفهوم سيدي.

الرقيب : يا أبله، كيف حاولت أن تنام مع الطباخة؟ يعني: على الطبّاخة..

يانسن : (للقاضي) سيدي، طباخة كانت سمين أبيض. أنا قالت: ليش ما نامِت سَوَا سَوَا؟

القاضي : آ، هه؟

يانسن : طباخة أُضرب وجهك. قالت: يانسن مَخطة.. (ومشيراً إلى نفسه) إضحَك عليك سيدي.

الرقيب : (غاضباً) إضحَك عليك وحدَك.

القاضي : (ليانسن، بعد أن ينظر إلى الرقيب نظرة رادعة ومبتسمة) وكيف قتلت سيّدك؟

يانسن : أنا ما أُقتُل معلّم. أنا أُضرب معلّم سكّين خفيف خفيف، معلم ماتت بعدين وحدَك.

القاضي : كاذب.. ومستعجل على المِشنقة.

يانسن : لا، سيدي. أنا ما في مِشنقة.

القاضي : إذن، اِحكِ الحقيقة.. احك لنا كلّ شيء.. لكي لا تُشنَق.

يانسن : سيدي، في قرى صار جريمات أكتَر: ناس إركَب حصان بالليل، أُهجُم على مزرعة، أُسرُق، أُقتل، إحرِق مزرعة أُهرُب. دَرَك ما إمسك حدا. حكومة فلتان سيدي. بعدين أنا فكِّر: أنا كمان أُقتل معلم، أُسرق مصاري، أُهرب. أيش يطلع مِنها؟

الرقيب : (مقلّداً وساخراً بعدوانيّة) ما يطلع مِنها شي.

القاضي : (بعد أن يستر وجهه بالإضبارة قليلاً ليخفي ضحكة أو ابتسامة، ويتنحنح) إح، إحم.. وبعدها؟

يانسن : بعدين، أنا راحت مطبخ، إقفِل باب مطبخ، إحبس طباخة جوّا. بعدين أنا راحت قصر معلّم، إمشي ورا

معلّم خفيف خفيف، أُضرب سكين فنلندي أربعة خمسة مرّة. معلّم وقعت. أنا إرمي سكين بعيد، أخدِتْ مصاري جِزدان معلّم، وْأُهرب غابة.. هادا كلُّه سيدي.

القاضي : كلا. أنت رجَعت في الليل، وحاولت أن تحرق المزرعة.

يانسن : سيدي أنا خافت كتير سيدي، فكَّر معلمّ ماتِت ما ماتِت ممكن سيدي. ممكن خبِّر درك سيدي. أنا كمان فكَّر: لازم إحرق مزرعة وْكُلُّه كلّه. أنا إرجَع نصِّ الليل. إمسك كبريت. شعِّل شعِّل، كبريت إطفي. كبريت بردان سيدي. أنا شعّل كمان سيدي، شعِّل شعِّل شعِّل هوب، دركي بارودة إرفع إيدك.. هادا كلّه سيدي.

القاضي : (للرقيب، مغلقاً الإضبارة) أرجِعْهُ إلى مكانه.

(الرقيب يومئ للعريف فيقترب العريف من يانسن ويقبض على ذراعه)

يانسن : (للقاضي، ثابتاً في مكانه) يعني أنا ما في أُشنُق؟

القاضي : نحن لا نشنُقُ في المحكمة.

يانسن : (للرقيب) شفتي؟ هي قالت ما في أُشنُق.

العريف : هيّا تحرّك. (يقود يانسن إلى مكانه السابق)

(القاضي يفتح إضبارة الغجري وينظر فيها)

القاضي : (للعريف) الثاني.

العريف : (وهو يحاول أن يمسك الغجري ويتلّه) تعال يا غجري.

الغجري : (وهو ينتر العريف جانباً) أعرفُ كيف أمشي.

العريف : هيّا وأغلِق فمَك.

(الغجري يكشّر عن أسنانه مطبَقةً ويبصق مِن بينها على الأرض أمام العريف)

العريف : ولا تبصُق في المحكمة.

(الغجري يُعرض عن العريف ويسير حتى يقف أمام القاضي، ويتبعه العريف ويقف جانباً)

القاضي : أخيراً وقعتَ يا غجري.

لغجري : (مصحّحاً) الغجري لقب وليس كُنية. اِسمي ميخائيل غولوبيتس، وأنا من مقاطعةِ أريول.

القاضي : وما هو عملُك؟

الغجري : قاطع طريق.

القاضي : هكذا، بصراحة؟!

الغجري : أنا لست من أهل الموضة، الذين يسمّون أنفسَهم مُصادِري مُلكيّات.

القاضي : وأنا سأخفّفُ عقوبتَك.. إن كانت إجاباتُك هكذا سريعةً وصريحة.. فمن شركاؤك؟

الغجري : شركائي، ها؟

القاضي : أعني أفرادَ عصابتِك.

الغجري : اقبِضْ على الريحِ.

القاضي : تأدّبْ في حضرة المحكمة.

الغجري : مؤكَّد.

القاضي : (يحمل كدسة أوراق من الإضبارة ويشير بها) أنت ملاحَقٌ بخمسٍ وعشرينَ قضيةً جنائية: (يضع الكدسة في الإضبارة المفتوحة) سكرٌ وعربدة.. سرقة.. قطعُ طريق.. نهبٌ مسلّح.. وجرائمُ قتلٍ في ظروف غامضة.. وكلّها محفوظةٌ في سجلاّت العدالة.

الغجري : والدركُ توقّفوا عن ملاحقتي بها كلِّها.

القاضي : لأنّهم لم يقبِضوا عليك متلبّساً، ولم يجدوا أدلّةً كافية. أمّا جريمتُك الأخيرة، فثابتةٌ بالأدلّة القاطعة.

الغجري : وما المطلوب منّي؟

القاضي : المطلوبُ إجاباتٌ مختصَرةٌ صادقة.

الغجري : مؤكَّد.

القاضي : (يستعين بالنظر إلى الإضبارة) يفيدُ شهودُ الجريمة.. بأنك أنت وعصابتَك.. وفي ليلة السابع والعشرين من آذار.. وفي الطريق إلى أريول.. هاجمتم جماعةً من تجّار الخيول. (الغجري يهزّ رأسه إيجاباً) وسرقتم خيلاً ونهبتم مالاً وقتلتم ثلاثةَ رجال.

الغجري : نحن أهالي أريول أصحابُ رؤوسٍ مثقوبة؛ لصوصٌ من الدرجة الأولى، بل أعاجيبُ لكلِّ اللصوص. أمّا قريتي فهي عاصمةُ اللصوصِ بلا مُنازع.

القاضي : واضح.. واضحٌ أنك صادقٌ وشريف، ولا تحاولُ التضليلَ بالكذبِ والإنكار.

الغجري : لماذا الكذبُ والإنكار؟ ها؟ في هذه المحكمةِ كلّهُ إعدام.

القاضي : لا، لا، سأنظرُ في تخفيفِ حُكمِك.. فمَن هم جماعتُك؟

الغجري : وهل يخونُ الزعيمُ جماعتَه؟!

القاضي : أنتَ الآنَ في قبضتنا وهم بعيدونَ ولا يهتمّون.

الغجري : اقبِضْ على الريح.

القاضي : ألم يخطُرْ في بالكَ أنهم هربوا من المعركة، ثم خانوك وأخبروا الشرطة؟

الغجري : وهل كنتَ أنت معنا؟

القاضي : كيف قُبضَ عليك إذنْ، وأنت مشهورٌ بالمراوغة والسرعةِ الخاطفة؟

الغجري : مسألةٌ بسيطة: انتهت ذخيرتي وأنا أغطّي هروبَ الرجال.

القاضي : (متهكّماً) رجولةٌ وزَعامة.

الغجري : وسوف أبوحُ بشيءٍ مهمّ.

القاضي : بدأتَ تفكّرُ الآنَ ورأسُك غيرُ مثقوب، فما الشيءُ المهمّ؟

الغجري : الإشارةُ التي أعطيها لهم عند الهجوم. (يُدخل إصبعين في فمه ويخرق الجوّ بصفير قويّ متعاقب)

القاضي : (للعريف) أرجِعه إلى مكانِه.

(الغجري يعود إلى مكانه السابق ويتبعه العريف، بينما القاضي يغلق إضبارة الغجري)

القاضي : (للسياسيّين) أمّا أنتم الخمسة، فما زلتُ أنتظرُ منكم إعلانَ توبةٍ واسترحام.

فاسيلي : (مقترباً من القاضي) أنا، أريدُ أن أُوضِحَ أنني.. أريد أن أوضحَ أنني.. (يلوب مرتبكاً)

القاضي : أنا أصغي وأنتظر.

فاسيلي : أنا اشتركتُ في التخطيطِ للعمليّة. لكنني، (يلقي على رفاقه نظرة خائفة) لكننا لم ننفّذ أيَّ شيء؛ قبضوا علينا في الطريق؛ يعني: قبل أن نفعل.

القاضي : تذكّرْ أيّها الحقوقيّ: التخطيطُ للجريمة جريمة، والتسلُّحُ بالقنابلِ جريمة، والسيرُ للتنفيذ جريمة.

(فاسيلي ينظر إلى رفاقه مستغيثاً)

القاضي : دعْكَ منهم فلن ينفعوك.. واطلب الرحمةَ كي تنقذَ روحَك.

فاسيلي : (صارخاً) بعدَ الإعدامِ لن يبقى شيءٌ لأنقذَه.

القاضي : (صارخاً) اِرجِعْ إلى مكانِك.

(فاسيلي يرجع إلى حيث رفاقه)

القاضي : (ناهضاً) رُفِعَت الجلسة.

(إظلام مفاجئ وموسيقا)

(يتغيّر المنظر)

المشهد الرابع

زنزانة الغجري ويانسن

السجّان يتسلّى

(إضاءة مساء)

(الغجري في العمق نائم جالساً ورأسه بين يديه)

(يدخل الرقيب حاملاً نصفَي رغيف سميك أسود، يتبعه الحارس حاملاً قصعتين)

(هذه القصعة طاسة لطعام شخص واحد، خلافاً لمعناها الأصلي وهو أنها تتسع لطعام جماعة)

الرقيب : هيه يا غجري.

(يانسن يقترب متطفّلاً بينما ينهض الغجري ويقترب)

الرقيب : (زاجراً) أنا أنادي الغجري.

يانسن : (في مكانه) مفهوم.

الغجري : (ناظراً إلى القصعتين) شوربةُ ملفوفٍ وخبزٌ أسود؟!

الرقيب : لا يا مولاي. كافيار.

الغجري : يعني شرّفتَنا كي تتسلّى؟!

الرقيب : أعندك مانع؟

الغجري : (يبصق على الأرض جانباً)

الرقيب : كفَّ عن البصاق يا أغبَر. وَسّخْتَ القلعة كلّها.

الغجري : وأنت وَسّخْتَ الدنيا ولا أحدَ يعترض.

الرقيب : ستُشنق على كلّ حال.

الغجري :(جاذباً قصعة من يد الحارس) هات.

الرقيب : (قاذفاً قطعة خبز في القصعة) خذ.

(الغجري يبصق على الأرض أمام الرقيب، فيردّ الرقيب بالمِثل ويتواجهان بصمت حانق)

يانسن : (للرقيب، بلهجة ذليلة) أنا ما في قصعة؟

الرقيب : لا واللهِ ما في قصعة.

(الغجري يضع قصعته وخبزته على الأرض ويتفرّج)

الرقيب : (ليانسن) منذُ أيّام وأنت في ضيافتنا تأكلُ وتنام. أما الآن فلا تحتاجُ قصعة.. لأنك سوف تُشنَق.

يانسن : أنا ما في أُشنُق. القاضي قالِت في المحكمة أنا ما في أُشنُق.

الرقيب : (بلهجة يانسن) القاضي قالِت ما أُشنُق في المحكمة. يعني أُشنُق برّا. (ثم بلهجته) وأنت غبيّ. بليدٌ وتتشاطر. تريدُ أن تَقتلَ دون عقوبة؟

يانسن : أنا ما أَريد أُشنُق.

الرقيب : ماذا تريد إذن؟ فودكا وطبّاخة؟

يانسن : طبّاخة حُمار.

الرقيب : إذن تريد فودكا؟

يانسن : أنا كانت إشرَب فودكا إشرَب.. إركَب زحّافة طير عالثلج. أُخبُط عامود تلغراف؛ أُخبُط يمين، أُخبُط شمال، غَنّي.. غَنّي عالي هيه هيه..

الرقيب : فنّان، فنّان.. لكنّك سوف تُشنق.

يانسن : إيمت؟

الرقيب : بعد أيام.

يانسن : تمزحي.

الرقيب : نحن هنا لا نمزح.

يانسن : طيّب، إيمت؟ إيمت؟

الرقيب : المسألة ليست كإعدامِ جروٍ صغيرٍ في حظيرة؛ خبطةٌ بالجدار وتنتهي القضية.. في إعدام الناسِ يجتمعُ القضاة، ويتداولون، ويصدرون القرار.. (ثم بلهجة يانسن) وبعدين أُشنُق.

يانسن : بعدين بعدين: يعني ما في.

الرقيب : بليدٌ وأحمق. (ثم يومئ للحارس)

(الحارس يقدم القصعة ليانسن الذي يمسكه من يديه ويخاطبه)

يانسن : إنتي إيش تعرفي؟ في أُشنُق والاّ ما في؟

الحارس : (جادّاً) القاضي مُمكنْ إشفِقْ عليك.

يانسن : إشفِق يعني أُشنُق؟

الحارس : إشفِق يعني ما أُشنُق.

يانسن : (للرقيب) شفتي؟ هيَّ قالت ما في أُشنُق.

الرقيب : (متهكّماً، وهو يعطيه قطعة الخبز) تفزَّل. (ثم يسير ليخرج)

(يسير الحارس خلف الرقيب، بينما يسير يانسن والغجري إلى عمق الزنزانة)

(إظلام تدريجي وموسيقا)

(يتغيّر المنظر)

المشهد الخامس

قاعة في سجن القلعة

الوداع الأخير

(إضاءة نهار. دقّات متواصلة لساعة برج القلعة)

١- (مِن يمين مقدّمة القاعة تدخل مارفا، كهلة بائسة هي أم فاسيلي، وخلفها ابنها يكلّمها وهو داخل، أي من الحركة. وخلفهما العسكري١ الذي يبقى قرب المدخل).

فاسيلي : (مرتعشاً) ما كان يجب أن تأتي. ليس إلا العذابُ ولا فائدة.

مارفا : يا إلهي!! لا داعي لهذا الكلام.. لِمَ أقدمتَ على ذلك؟

فاسيلي : أنا كنتُ أعرفُ ما أفعلُه. (ينهض) لكنّكِ لا تفهمينَ يا أمّي، لا تفهمين.

مارفا : كما تريدُ يا ولدي، هدّئ نفسَك.. (تتلمّسه) هل أنت بردان؟ (يرتعش) هل تعاني من الزُكام؟

فاسيلي : (منفتلاً عنها) آه يا أمي آه.. البردُ والزكامُ لا شيءَ الآن، (مبتعداً) وأنا كما تعلمين.

مارفا : أبوك لا يرحَمُني ولا يفكِّرُ إلاّ بنفسِه. اليومَ كلّمتُهُ بشأنِك.. فطلبَ أن أصنعَ له فطائرِ اللحمِ والبصل.

فاسيلي : أنا أعرفُه؛ لا يهتمُّ إلاّ ببطنِه وأموالِه.

مارفا : قلتُ له أنتَ تاجرٌ وعندَكَ نقود. وهذا ابنُنا، ولدُنا، اذهبْ وادفع عنه فِديةً لعلّهم يَقبلون. لكنّ التيسَ العجوزَ عانَد.

فاسيلي : أيُّ أبٍ حقيرٍ هذا، ليذهبْ إلى الجحيم.

مارفا : لا تُغضِب الربَّ يا ولدي؛ لا تجدّفْ بحقِّ أبيك.

فاسيلي : هو الذي دفعَني إلى ما فعلتُه؛ منذ طفولتي يضربُني كأنّي حيوان.. والآنَ لا يفهمُ أنّي سأُشنَق.

مارفا : وأنا؟ ماذنبي أنا؟ لا تعذّبْني وتَعجَلْ بِموتي.

فاسيلي : افهَموا أنّي سأُشنَق.

مارفا : لو لم تتجاوزْ على الناس.. آهِ يا ربّي لن أقولَ تلك الكلمة.

فاسيلي : ما هذا يا ربُّ ما هذا؟ لا يَحدُثُ مِثْلُهُ حتى بين الوحوش.

مارفا : كفى يا ولدي كفى.. إنك تقتلُني أنت وأبوك.

فاسيلي : بل أنتما تستعجلان موتي، فهل أنا ابنُكم أم لا؟ ابنكم أم لا؟

مارفا : وأنا يا فاسيلي؟ ألستُ أمَّك؟ ألا تأخذُني بك الشفقة؟ ولكنْ ماذا في يدي أن أفعل؟ ماذا في يدي أن أفعل؟ (تبكي)

(العسكري١ يقترب من فاسيلي وأمه)

فاسيلي : سامحيني، حان وقت انصرافِك.. قبّلي عنّي إخوتي. (يقتادها خارجاً ويتبعهما العسكري١)

٢- (مِن يسار مقدّمة القاعة تدخل أم سيرجي مع أبيه الذي يكلّمها وهما داخلان، موجّهاً تعليماتِه قبل حضور ابنهما. نيكولاي، أبو سيرجي، رجل كهل ناحل العود مديد القامة، منتصب الجذع كأي رجل قضى عمره في عسكرية حقيقية. شعره ولحيته في بياض الثلج، وبزّته بيضاء سكّرية.. داريا، أم سيرجي تقارب الكهولة، ضئيلة الجسم، وكلاهما طيّبان بريئان

كالأطفال. نيكولاي تسيل دموعه ويمسحها طَوال حواره مع زوجته)

نيكولاي : أرجوكِ اسمعي يا أمّ: سيرجي هو ابنُنا الوحيد، فلن نزيدَ آلامَهُ في اللحظةِ الأخيرة. يحبُ أن نخفّفَ عنه ونساعدَه.

داريا : ماذا عليّ أن أفعل؟

نيكولاي : يمكنُ أن تقبّليهِ وتسكتي. وبعدَ قليلٍ يمكنُ أن تكلّميه. لكنْ حين تقبّلينه اسكتي. لا تتكلّمي مباشرةً بعد القبلة. وإلاّ فسوف تقولين ما لا يجوز.. فهمتِ يا داريا؟

داريا : مفهوم. مفهوم.

نيكولاي : ولا تبكي كرُمى لله؛ ستقتلينه بالبكاء.

داريا : أنت أيضاً، كفَّ عن البكاء.

نيكولاي : أنتِ دفعتِني إلى البكاء. لكنْ أنتِ لا تبكي. هل تفهمين؟

داريا : أفهمُ يا نيكولاي. أفهم.

(يمسح دموعه جيّداً وقد لاحظ مجيء سيرجي)

(يدخل سيرجي مسروراً بهما، وخلفه العسكري٢ الذي يبقى واقفا عند المدخل)

سيرجي : (هاتفاً وهو يدخل) أبي وأمّي، مرحبا..

داريا : (تقف في مكانها كالمتخشّبة) سيريوجا، مرحبا.

سيرجي : مالكِ متخشّبة؟ تعالي إليّ. (يقترب منها ويتعانقان ثم يتّجه سيرجي إلى أبيه) مرحباً يا أبي.

نيكولاي : مرحباً يا بنيّ. (يتعانقان بقوّة ورجولة)

سيرجي : سُترتك فوّاحةٌ برائحة البِنزين، كالعادة.

نيكولاي : كأيِّ ضابطٍ متقاعدٍ وبلا وصيف؛ أخدمُ نفسي بنفسي.

داريا : قلتُ له هذا الصباحِ دعني أنظّفْها لكنّه عنيد.. يخشى على صِحّتي.

سيرجي : وأختي، كيف حالُها؟

داريا : أختُكَ لا تعرف.

سيرجي : كيف يمكنُ لأحدْ أن لا يعرف؟!

نيكولاي : (لسيرجي) لا داعي للكذب. الجميعُ قرأوا الخبرَ في الصحيفة. (ثم لزوجته) يجبُ أن يعرفَ أنّ جميعَ أهلِه مهتمّون.

داريا : (لسيرجي) واللهُ يعلمُ كم تشفَّعْنا لأجلِك.. وفي كلِّ مكان.

سيرجي : لا داعي لذلك.

نيكولاي : وقد استرحَمتُ جلالةَ القيصر.

سيرجي : أعرفُ يا أبي، أعرف.

داريا : (تجهش بالبكاء) سيرجي.. سيرجي..

نيكولاي : لا تبكي فتعذّبيه.

سيرجي : لا بأسَ يا أبي، لا بأس.

نيكولاي : أمامَه موتٌ فلا تعذّبيه.

سيرجي : أمّي، أبي، أرجوكما؛ لست خائفاً من الموت.

(داريا تخنق بكاءها وتمسح دموعها بينما زوجها يريد تغيير الموضوع)

نيكولاي : (لسيرجي) أختُكَ طلبت منّي أن أقبِّلَكَ عنها.

سيرجي : قبِّلْها عنّي.

داريا : وآلُ خْفيستوفْ يسلّمونَ عليك.

سيرجي : آلُ خفيستوف؟! نعمْ، تذكّرت.

(صمت قصير)

نيكولاي : (لسيرجي، متردّداً) هل.. أبلغوكم متى؟

سيرجي : لم يفعلوا.. لكنّهم وضعونا في زَنزاناتٍ مفرَدة.. يعني غداً أو بعد غد.

(صمت قصير، والأم تكبت نشيجها)

نيكولاي : (مقترباً من زوجته) اعذُريني. حان انصرافُنا.

داريا : (واقفةً، تكرّر دون معنى) لا، لا، غيرُ ممكن. ماذا يكونُ حالي بعد هذا؟ ماذا أفعلُ ماذا أقول؟

سيرجي : (يقترب منها ويمسك كتفيها بقوّة) أمّي سامحيني على آلامِك. لكنّ دولتَنا دفعَتني إلى ما فعلتُه، فلن أشعرَ بالخجلِ أو بالندم. (يترك أمه مبتعداً قليلاً) سأواجهُ الموتَ هادئاً رافعَ الرأسِ فافتخري أمامَ الجميع. افتخري بأنّي لم أسقطْ ولم أتخاذل، ولم أذرِف دمعةً واحدة. (يمدّ يديه لأمّه) والآن ودّعيني بصمتٍ وكما يجب؛ بكلِّ شجاعة. (يتبادلان قبلات صامتة)

(سيرجي يتجه إلى أبيه مادّاً يده فيتصافحان بقوة)

نيكولاي : وداعاً يا سيرجي.

سيرجي : أنت يا أبي.. إنسان نبيل.

نيكولاي : أباركُ موتَك يا بنيّ. مُتْ شجاعاً كضابط.

(يخرجون)

(موسيقا وإظلام تدريجي)

المشهد السادس

قاعة في سجن القلعة

وظيفة للغجري

(تضاء القاعة السابقة)

(يدخل الرقيب ممسكاً بيد الغجري ويليهما العريف)

الغجري : (صارخاً نزقاً وهما داخلان) إلى أينَ تقودُني أنت وعريفُك؟!

العريف : وأنتَ لماذا تصرُخ؟!

الغجري : المشنقةُ أمّنّا عليها، دعوني أرتاح.

الرقيب : اهدأْ يا ميخائيل، يا ميخائيل..

الغجري : (متعجّباً ومتشكّكاً) أراك تناديني باحترام..

الرقيب : ولن أناديك إلاّ باحترام.

الغجري : (ساخراً) مؤكّد.. كأنّ جَدّي هو جنكيزخان، وكأنّي وريثُ كُنوزه!!

العريف : يا أخانا نحن لا نَمزح.

الغجري : وأنا لا أمزح.

الرقيب : اسمعني أنا يا أغبر.. جئتُك بخبرٍ طيّب.

الغجري : هل غيَّروا الشنقَ إلى خوزقة؟

الرقيب : قلتُ اسمعْني. أفّ.

الغجري : خازوقٌ على طريقة السلطان، ها؟

الرقيب : كم أتمنى أن تتخوزق!! اسمعني واخفِضْ صوتك. (ثم يهمس) دبّرتُ لك وظيفة، هنا عندنا.

الغجري : والوظيفةُ قبلَ أن أُشنَق، أم بعد أن أشنَق؟

العريف : (بحماسة وإغراء) أنت لن تُشنَقَ بل سوف تَشنُق.

الغجري : (لكليهما) أنا.. جلاّد؟!

الرقيب : مهنةٌ كأيّ مهنة. وتبقى على قيد الحياة.

الغجري : ألم تجد غيري للوظيفة؟!

الرقيب : يا أغبر يا أغبر، ينقصنا جلاّد.. وظننت أني أنفّعك.

الغجري : (يقهقه) يا شماتتي بكم جميعاً. توجَد رقاب، وتوجَد حبال، لكنّ الجلاّد ناقص.. حلوة.

العريف : طبعاً حلوة. تشنُقُ وتشنُق.. وتبقى من الأحياء.

الغجري : لا والله. سأَشنُق لكم بعد أن أُشنَق. ما رأيك، ها؟

الرقيب : ما العملُ معك؟ خلّصني.

الغجري : قل لي أولاً، هل يشنقون عندكم مع الموسيقا، أم دون موسيقا؟

الرقيب : أحمقُ أحمق.

الغجري : يجب أن تَشنقوا مع الموسيقا والغناء هكذا: (يمثّل شنق نفسه وهو يهمهم مترنَماً)

الرقيب : (مقاطعاً) لا تتصرّف كالمجنون يا أغبر.

(الغجري يكشِّر بابتسامة وحشية ويعوي عواءً ذئبيّاً)

الرقيب : كلّمني كرجلٍ عاقل.

الغجري : (ساخراً) مؤكَّد.

الرقيب : ما رأيك في الوظيفة؟

(الغجري يحكّ رأسه مفكّراً بينما تدخل الراوية)

الراوية : يا لَلروعةِ إنه الآنَ موظَّف؛ جلاّدٌ في قميصٍ أحمر، والساحةُ مكتظّةٌ بالناسِ ومنصّةٌ عالية، وهو يتمشّى عليها حاملاً سيفَهُ العريضَ اللامِع، أو مهيِّئاً كرسيَّ المشنوقِ وحبلَ المشنقة.. وكلّ شيءٍ مَرِحٌ ومبتسم.. حتى المحكومُ الذي سيُعدمُه يبتسم..

لكنّ خلفَ الحشدِ عرباتٍ وخيولاً وفلاّحين، وخلفَهم تنبسطُ حقولٌ عامرةٌ بالمحاصيل. وأظلمَ الكونُ في عينيهِ فجأة واختنقَ نفَسُه، وصارَ قلبه قطعةَ جليدٍ متحجّرة، أَرعشَت جسدَهُ رعشةً ناشفة.. (تخرج)

الرقيب : أين شردتَ يا أخانا؟

الغجري : (منتبهاً) ها؟

الرقيب : ما رأيك في الوظيفة؟

الغجري : هل قلتَ: الوظيفة؟

الرقيب : (فاقداً صبره) نعمْ، قلتُ الوظيفة.

الغجري : (يبتسم بخبث) أنت مستعجل.. في خَطوةٍ أخرى سأعرف ما أقولُه.

العريف : ما معنى الخطوةِ الأخرى؟!

الغجري : أعني: في وقتٍ آخر..

الرقيب : متى هذا الوقت الآخَر؟ سيسألني مديرُ السجنِ فماذا أقول؟

الغجري : تقول: في وقتٍ آخر.

(إظلام مفاجئ وموسيقا)

(يتغيّر المنظر)

المشهد السابع

زنزانة انفراديّة

تاتيانا تتراجع عن الانتحار

(دقّات متواصلة لساعة البرج، مع بقعة إضاءة ليلية على تاتيانا تستمرّ طوال المشهد)

(تاتيانا تذرع الزنزانة متوتّرة، وتدخل الراوية)

الراوية : كانت ساعةُ برجٍ القلعة، تدُقُّ في قلبِ الفتاةِ وترُجُّهُ وتؤلِمُه، فترى الفتاةُ الأوقاتَ بطيئةً مرهَقة، تدِبُّ في الظلماتِ على جبلٍ شاهقٍ صعبِ الْمُرتَقى، ثم تنْزلقُ وتختَلُّ وتهوي إلى الأسفلِ بأنين. ومن الأسفل، تدِبُّ الأوقاتُ بعذابٍ جديدٍ إلى ذروتِها القاتمة. فتاةٌ أمامَ الإعدامِ تعُدُّ الساعاتِ وتنتظر.. والليلُ خيلٌ سوداءُ متوحِّشة، تصهَلُ مِن بعيدٍ وبلا نهاية. (تخرج)

(الحارس يدخل متردّداً متلفّتاً حذراً وتسير تاتيانا نحوه حتى تفصلهما القضبان)

الحارس : كيف حالُكِ يا آنسة؟

تاتيانا : أنا عاتبةٌ عليك.. تأخرْتَ كثيراً بذاك الدواء.

الحارس : أعطيتُكِ مهلةً لتفكّري.. الانتحارُ جريمةٌ بِحقِّ الله.

تاتيانا : هل أخلفتَ وعدَكَ أَم خفتَ من العقوبة؟

الحارس : كلاّ، ولكنْ.. إن كنتِ مصرّةً فلا بدَّ لي.

تاتيانا : هل هو معك؟

الحارس : هو في جيبي.

تاتيانا : أنتَ نبيلٌ ورائع.

الحارس : أنا خادمُكِ يا آنسة.. أنا أرجوكِ بتواضُع.. لا تفعلي أمامي فلن أحتمِل.

تاتيانا : أنا أرجوكَ أيضاً.. أعطِني ذلك السُمّ.

(موسيقا: مارش عسكري بهيج لفرقة موسيقية بعيدة. وفي الوقت نفسه يمدّ الحارس يداً مرتعشة إلى جيبه ويخرج صرة ورق صغيرة فتخطفها تاتيانا)

الحارس : أرجوكِ لا تفعلي.

تاتيانا : (وهي تفتح الصرّة) سترى بعينِك. (ترمي المسحوق أرضاً) الآنَ أستحقُّ صفةَ البطولة. (تكوّر الورقة وتقذفها بعيداً) البطولة.

(الحارس يرسم إشارة الصليب عليها وعلى نفسه وينصرف بسرعة بينما تتعالى الموسيقا)

تاتيانا : (تهتف باتجاه الخارج) أيها الموسيقيّون.. أيّها الجنودُ الطيّبون.. احملوني على أجنحة الموسيقا.

(إظلام مفاجئ)



(يتغيّر المنظر)

المشهد الثامن

زنزانة انفراديّة

نهاية المماطلة

(إضاءة نهار)

(الغجري جالس عاقداً يديه حول ساقيه. يدخل الرقيب والعريف)

الرقيب : هيه.. يا غجري..

الغجري : ماذا تريد؟

الرقيب : مُهلتكَ انتهت ولم أسمع جوابَك.

الغجري : (ينهض ويقترب مبتسماً) بشأنِ الوظيفة؟

الرقيب : مُهلتكَ انتهت ولم أسمع جوابَك.

الغجري : (ناهضاً ومبتسماً) بشأنِ الوظيفة؟

الرقيب : (بصبر نافد) نعم، بشأنِ الوظيفة، وليس بشأنِ البُراز.

يانسن : (يصرخ من الداخل) ما أريد.

الرقيب : (صارخاً نحو الداخل) إلى جهنم.

الغجري : (للرقيب) ويسمحون لمثله أن يقتل الناس!؟ والله عجيبة!!

الرقيب : وأنت يا غجري، ألم تكن تقتل الناس؟!

الغجري : وأنت يا رقيب، ألم ترِد توظيفي كي أقتلَ الناس؟!

الرقيب : ضيّعتَ الفرصةَ يا أغبر؛ صرفْنا النظرَ عن توظيفِك.

الغجري : اشنقوا بأنفسكم إذن، عليكم اللعنة.. من البداية لا أريد.

الرقيب : فلماذا ماطلتَ إذنْ، وطلبتَ مُهلةً بعد مهلة؟!

الغجري : ولِماذا سألتني الآنَ بشأنِ الوظيفة؟!

الرقيب : كي أبشّرَك وأشمتَ بِجَنابِك؛ وجدْنا رجلاً غيرَك.

الغجري : جلادٌ جديد، ها؟

الرقيب : (بسخريته وشماتته) نعمْ سيّدي. جلادٌ جديد.

الغجري : وكيف يشنقُني ولم يتقن الصنعة؟!

الرقيب : لا تقلقْ بهذا الخصوص.

الغجري : كيف لا أقلقُ يا محترم؟ أنا الذي سأُشنَقُ لا أنت. (ثم للعريف) فأوصِ الجلاّدَ الجديدَ المحترَم، أن يُحضرَ

لوحاً من صابونِ الحكومةِ كي يدهنَ الأنُشوطة.. (ثم يشير إلى الرقيب متضاحكاً) لأنّ صاحبَكم هذا أكلَ صابونَ السجنِ كلَّه.

الرقيب : اضحك وهيّئ نفسك.. (ثم مع إشارة إعدام) اَلليلة.

(إظلام مفاجئ، وموسيقا)

(يتغيّر المنظر)

المشهد التاسع

زنزانة انفرادية

الاعتراف

(إضاءة ليليّة تدريجيّة. دقّات ساعة البرج تتوالى خمس مرّات أو ستّاً ثم تخفت بقدر ذلك أو أقلّ)

(فيرنر جالس مستغرقاً في التفكير، ويشير بيده إشارات مَن يلعب الشطرنج مع نفسه)

(تدخل الراوية)

الراوية : كانَ في ألمانيا قد هزمَ أشهرَ اللاعبينَ بالشِطرنج، ولم يخسَرْ في مئاتِ المواجَهاتِ إلاّ بضعَ مرّات. ومنذ اعتقالِه بدأ يلعبُ الشِطرنجَ مع نفسِه بخِيالِه، بتركيزٍ صافٍ وانتباهٍ هادئٍ ومستغرِق، فلا التحقيقُ والمحاكمةُ ولا قرارُ الإعدام، أمكنَ أن يشوّشَ عليه نقلةً واحدةً

في أيِّ لُعبة، وظلَّ بالشطرنجِ يزدري الموتَ ويتجاهلُه، ويحتفظُ لنفسهِ بِحرّيةٍ متعالية.. لكنْ مع اقترابِ النهاية، بدأَ يصارِعُ فكرةَ الموتِ فيتشوَّش، ولا يسيطرُ على تفكيرهِ ولعِبِه. (تخرج)

فيرنر : (يحرّك حجر شطرنج وهميّاً ثم يكلّم نفسه مقهوراً) مات. ماتَ مَلِكي وانتهت اللعبة، (ينهض واقفاً) كما انتهت لعبتي مع الزعامةِ والمجدِ في هذه الزِنزانة.. لم تهزِمْني قوّةٌ بوليسيّة، ولا مُصادَفةٌ عمياءُ ولا خُطوةٌ غيرُ محسوبة، بل هزمَتْني نفسي ذاتُها.. اَلمتفوّقةُ والطموحة.

فمنذُ أسّسْتُ منظّمتي وبدأتُ التخطيطَ للعمليّات، بدأَ نجاحي بالتصاعُدِ حتى الإبهار؛ كانت خُططي مدروسةً دقيقةً مُحكَمة، فنجحَ رفاقي كلُّهم في كلِّ اغتيال، دونَ أن ينكشفَ منهم أحدٌ أو يتكبّدوا أيَّ خَسارة. والنتيجةُ أنّي فتَنتُهم وصرتُ معبوداً لهم ومَثلاً أعلى، أمّا أنا فتحجّرَ قلبي نحوَهم بسببِ الشعورِ بالعظَمة، فصرتُ أغطّيهِ بتمثيلٍ بارعٍ للتواضُع.. ومع الغرورِ نَما ازدرائي لكلِّ البشر، فصرتُ أغطّيهِ بالتعاطُفِ المتعالي، اَلمدروسِ بعنايةٍ فائقة.

وأمّا رفاقي فاستمرّوا في طاعتي طاعةً كالعبادة، حتى ظننتُها أبديّة.

لكنني ذاتَ يومٍ، ويا لَلدهشة، وجدتُ نفسي أمامَ اعتراض..

(تختلف الإضاءة) (المشهد من الذاكرة في غرفة فيرنر)

(تدخل تاتيانا لابسة ثياباً تختلف عن ثيابها المعهودة في كلّ المشاهد السابقة)

فيرنر : تاتيانا.. أردتِني في حديثٍ على انفرادٍ وفي بيتي هنا. فهل هو حديثٌ عاطفيّ؟

تاتيانا : أرجوكَ لا تخطئْ بِحقّي وحقِّ نفسِك. فأنا أعرفُ وأنت تعرف، أنك تمقُتُ العاطفةَ وتقتلُها في نفسِك، وتعتبرُها ضَعفاً مُهيناً ومرضاً يجبُ عِلاجُه.

لكنّي أردتُ هذا اللقاءَ لأمرٍ أهَمّ: تحسينُ سُمعتِنا بين الناس، وترشيدُ استخدامِ السلاح.

فيرنر : (بهدوء واهتمام جادّ) وكيف ذلك؟

تاتيانا : أن نقتصرَ في عمليّاتِنا على المسدّساتِ ونكُفَّ عن استخدامِ القنابل، كي لا نُصيبَ الأبرياءَ ولا ينقلِبَ الشعبُ ضدَّنا.

فيرنر : هذه المسألةُ حسمْناها جميعاً مِن البداية؛ نحن لا نستهدِفُ الأبرياء، وقنابلُنا بسببِ الضَرورة.

تاتيانا : هذا غيرُ منطقيٍّ وغيرُ إنسانيّ؛ نقاتِلُ من أجلِ الناسِ ونقتلُهم بسبب الضرورة؟!

فيرنر : في كلِّ حربٍ ضحايا أبرياء.. والضرورةُ هي الضرورة.

تاتيانا : وأنا أرى اقتراحي ضرورة.

فيرنر : فاطرحي الفكرةَ للتصويت كالعادة.. وبعدَه تُلتزَمُ النتيجة.

تاتيانا : (وهي تهمّ بالخروج) كنتُ آمُلُ أن تقتنع.. فتقنعَ باقي الرفاق. (تخرج صامتة منكسرة)

(عودة إلى الزنزانة)

فيرنر : وبعدَ أن ذهبَت راجعتُ عقلي واقتنعتُ برأيِها.. لكنّي وإيّاها خسرْنا التصويت، فتظاهرتُ باحترامِ قرارِ الأغلبيّة، وأنا أكتُمُ إحباطاً وعدَمَ احترام. وعرَفتُ فيما بعدُ أنّ الرفاقَ شعروا بِحالي وكتموا عنّي ما لاحظوه..

فبعدَ أيّامٍ قتلَ البوليسُ رفيقاً لنا تحت التعذيب، وكان مَقتلُهُ مناسَبةً لِيختبِرَ الرفاقُ ثباتَ التزامي، فكلّفوني بقتلِ المخبِرِ الذي دلَّ على ذاك الرفيق. وبكلِّ بساطةٍ

ترصّدتُ حركاتِهِ وسَكَناتِه، وكمَنتُ له في زاويةٍ مظلمةٍ وقتلتُهُ بدمٍ بارد. وحينَ رأيتُ وَجهَه الميّتَ التافه، فقدتُ نشوةَ النصرِ ولَذّةَ الانتقامِ، وفقدتُ احترامي لذاتي وقضيّتي ونشاطي كلِّه..

مِن ذلك اليوم، بدأتُ أشعرُ بقرَفٍ شاحب، وبأفعى ميتةٍ تجثُمُ على قلبي وتصيبُني بالغثيان. لكنّ كبريائي تغلّبَت على كلِّ تلك المشاعر، (يستلقي ويلفّ رِجلاً على رجل) فتظاهرت بأنّي لا أعاني شيئاً ولم أتغيّر.

(تتغيّر الإضاءة) (المشهد من الذاكرة في غرفة فيرنر)

(تدخل ماريا لابسة ثياباً تختلف عن ثيابها المعهودة في كلّ المشاهد السابقة)

فيرنر : (ناهضاً) ماريا نفسُها في بيتي أنا؟!

ماريا : (مبتسمة) نعم، في بيتِكَ أنتَ على انفراد.

فيرنر : إن كانَ لقاءً جسديّاً فهو حقٌّ طبيعي.. أمّا العواطفُ الرومنسيّة، فهي ضَعفٌ ومرضٌ مُهين.

ماريا : ضَعفٌ ومرضٌ برأيِكَ وحدَك. ولا تنسَ أنّي بعدَ الحبيبِ الذي فقدتُه، لا يَشغلُ قلبي أحدٌ ولا يلمسُ جسدي أحد. وقد أتيتُ الآنَ لكي أسألك: ما هذا التغيُّرُ الذي أراهُ في عينيكَ منذُ مدّة؟

فيرنر : (يتصنّع الدعابة) ماذا ترَينَ في عينيَّ منذُ مدّة؟!

ماريا : منذ قَتلتَ ذاكَ المخبِرَ ظهرَ في عينيكَ سرّ عميق. ولأنّكَ تخفيهِ بِمهارةٍ فائقةٍ لم يَلحَظْهُ أحدٌ غيري إلى الآن. لكنّ الرفاقَ ليسوا عمياناً ولا بُلَهاءَ وعاجلاً أم آجِلاً سيكشفونك. فما الذي تخفيهِ أيّها الشاعرُ العالِمُ والزعيمُ المناضِل؟ ما مشكلتُك؟

فيرنر : (بعد صمت) أتريدينَ الحقيقة؟ قتلُ المخبِرِ أثارَ في نفسي زوبعةً من الأفكار؛ فرغمَ اقتناعي بأنه انتقامٌ ضروريٌّ عادل، كان وجهُ المخبِرِ الميتِ يقولُ إنّي أمامَ هدفٍ تافهٍ لا يشرِّف، وشعرتُ بالقرفِ من نفسي ومنه أيضاً. وبعدَها بدأتُ أتساءل: ما جدوى كلِّ ما نفعلُه؟ وإلى أينَ نتّجهُ بأنفسِنا وبالشعبِ كلِّه؟

ماريا : إذنْ بدأتَ تشكُّ بأننا نقاومُ الطغيانَ ونسرِّعُ ثورةً شعبيّةً قادمة.

فيرنر : لكنْ أيَّ ثورةٍ ستكونُ هذه؟ وهل ستكونُ عادلةً وبنّاءةً وهي تستبيحُ دماءَ الأبرياء؟!

ماريا : هذا ليس تفكيراً بل تبريرٌ للتخاذُل. والتخاذُلُ في منظّمتنا خيانة. فتذكَّرْ عاقبةَ الخيانة.

فيرنر : عزيزتي ماريا: أنا أُصارِحُكِ بأفكاري لأنكِ جديرةٌ وقديرة.. ناضجةٌ ومتفهّمة.. وتغوصينَ إلى ما في قرارةِ نفسي دون أن أتكلّم.. وما أفكاري وتساؤلاتي إلاّ حَيرةٌ عابرةٌ وقَرَفٌ من قتلِ مُخبِر.

ماريا : (بعد لحظة تفكير) أمامَكَ إذنْ هدفٌ كبيرٌ مشرِّف: وزيرُ الداخليّة.

فيرنر : مَن قرّرَ هذا الهدف؟!

ماريا : أنا ارتأيتُهُ الآن. وسأطرحُهُ غداً على التصويتِ واثقةً من الإجماعِ أو الأغلبيّة. (تسير لتخرج ثم تتوقف) وسأقترحُ أيضاً: أن لا يقتصرَ دورُكَ على وضعِ الخطّة، أن تقودَنا لتنفيذها. (تخرج)

(عودة إلى الزنزانة)

فيرنر : والآنَ أسألُ نفسي: ما أنا في الحقيقة؟ مجنونٌ يبحثُ عن حلِّ مُعضلةٍ تاريخيّةٍ في بِرَكِ الدمّ. ومثقّفٌ مجرمٌ وسياسيٌّ مجرم، وشخصٌ قَتَل ضميرَه واستبدلَ بهِ جنونَ العظَمة.. أنا كفرتُ بكلِّ البشرِ وآمنتُ بنفسي وحدَها لذا أستحقُّ الموت.. (يخرّ راكعاً) أنا أستحقُّ الموت.

(ساعة البرج تدقّ ثلاثاً ببطء)

فيرنر : (ينهض) إنها آخِرُ اللحظاتِ فمرحباً أيّها الموت، يا توءمَ الحياةِ العظيمَ العادل. اختَرتَني فاختَرتُك، وسوف أذوبُ فيك مثلَما يذوبُ العاشقُ في معشوقِه، ويذوبُ الصوفيُّ في الله..

(موسيقا ترافقه حتى النهاية) يدايَ ترتعشان. ظاهرةٌ لم أشعر بها طولَ عمري. قلبي يرتعشُ أيضاً ويخضوضِر.. قلبي يعودُ إلى الصبا والشِعرِ والفرحِ والمحبّة.. الفرحِ والمحبّة.. روحي ترتفعُ إلى ذُرى الحقيقةِ الأبديّة.. فأرى الموتَ والحياةَ في مشهدٍ فريدٍ باهرٍ؛ بَحْرانِ عميقانِ متلألئان، يندمجانِ في فضاءٍ عريضٍ بلا نهاية، والبشرُ مواكبُ مشرقةٌ بالجمال تسيرُ على قوسِ قُزح، وتغنّي تحت الشمسِ العظيمة. الشمسِ الأمِّ العظيمة. فما أحبَّكم إلى قلبي أيّها البشر. ما أحبَّكم يا جميعَ البشر. (يخرّ راكعاً ذارف الدمع) آهِ يا رفاقيَ الأعزاء. يا أحبّائي، يا أحبائي، يا رفاقيَ الأعزاء..

« تمّـــت »

الكتابة الأولــى : ١٩٩٩

الكتابة المعتمدة : ٢٠٠٦